

وقفات مع سورة «المنافقون»

**3**

**3**

د. إسلام بن نصر الأزهري

**وقفات مع سورة «المنافقون»**

**في العام الخامس أو السادس الهجري على خلاف بين أهل السير:** نما إلى علم النبي ﷺ أن بطنًا من خزاعة جدُّهم المصطلق، جمعت لتغير على المسلمين في المدينة، بقيادة الحارث بن أبي ضرار.

وكانوا قبل ذلك قد عاونوا قريشا على حرب المسلمين في أحد، كما سيطروا على الطريق المؤدية إلى مكة، فكانوا حاجزًا منيعا أمام إنفاذ المسلمين بعضَ مصالحهم في البلد الحرام وما حولها.

فأرسل النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي؛ ليستبين الأمر، وبعد تأكده أعلم به النبيَّ ﷺ.

فخرج رسول الله ﷺ في سبعمائة مقاتل، وثلاثين فارسًا، قاصدًا بني المصطلق، فأغار عليهم عند ماء المُرَيْسِيع، وهم غارُّونَ - غافلون - وأنعامُهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وتزوجها بعد ذلك في قصة مشهورة. ثم أعتق المسلمون أهل مائة بيت من السبايا مستثقلين أن يتملكوا أصهار النبي ﷺ. فترتب علي ذلك إسلام من في القبيلة.وهذه الغزوة تعرف بــ **«غزوة بني المصطلق»**، أو **«غزوة المُرَيسِيع».**

ومع أن أحداث هذه الغزوة قد مرَّت سريعا، ولا تكاد تتجاوز السطور المعدودة في كتب السير، إلا أنها كانت ذاتَ تأثيرٍ بالغٍ في الحياة الاجتماعية والنفسية في المجتمع المدني!

**ذلك أنه قد خرج مع النبي** ﷺ خلقٌ كثير من المنافقين، لم يخرج مثلهم في غزاة قط - كما قال ابن سعد في [الطبقات الكبرى] ــ، وكان على رأسهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول**.**

**3**

ولم يكن خروجهم لأجل المشاركة في الحرب، بل لأجل الحصول على الغنيمة، لا سيما وقد علموا أن النبي ﷺ سيباغت بني المصطلق، ولن يكون ثَمَّ قتالٌ كبيرٌ بين الفريقين.

ولم يكن خروجهم علامة خير؛ لأنهم مُحبِطون، يؤلِّبُون على المسلمين، ويثِيرون الفتن. كما قال - تعالى -: **(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)**.

وبالفعل: أحدث المنافقون أزمات متعددة أثَّرت سلبًا على حياة المسلمين في المجتمع المدني، وفي كل مجتمع يقول أهله كلمتا التوحيد.

وأشدُّهَا أزمتان. **الأزمة الأولى:** إحداث الفرقة بين المسلمين، والتحريض على إخراج المهاجرين من المدينة.

فبينا كان المسلمون على الماء يستقون، وكان مع عمر غلامٌ أجيرٌ له من بني غفار يسمى: جَهْجَاه بن مسعود الغفاريّ يقود فرسه = تزاحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء وتضاربا، فصاح الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ الغِفاريُّ: يا معشر المهاجرين! فاجتمع الفريقان، وكادوا يقتتلون، فذهب إليهم رسول الله ﷺ وقال: **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة**». فقضى على الفتنة في مهدها، وأزال الشحناء والفُرقَةَ.

**لكن:** يأبى عبد الله بن أبيّ - رأس النفاق - أن تمر تلك الواقعة دون استغلالها في تحقيق مآربه، من نشر الفتنة والوقيعة بين المسلمين، فجعل يوقد نارها، ويذكي لهيبها! فقال: أو قد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: (سمّن كلبك يأكلك). أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم قال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فسعى إلى رسول الله ﷺ فأخبره، وعنده الفاروق عمر - رضي الله عنه - فاستأذن رسولَ الله ﷺ في قتله، أو أن يأمر به من يقتله، فقال ﷺ كلمةً تدل على عبقريةِ السياسيِّ المحنك، وفعل فعلًا يدل على براعة التصرف في حل الأزمات = قال: **«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، ولكن: آذِنْ بالرحيل».**

فما زادته ﷺ شدةُ الجهل إلا حلما، فلم يقتله؛ لأنه أظهر الإسلام، وأبطن نفاق الكفر، وهو ﷺ مأمور بأن يأخذ الناس بظواهرهم.

ثم عبر بقوله: (**أصحابه**) لأنه يعلم أن ناقلي الأخبار يأخذون الخبر شبرا فيجعلونه ذراعًا؛ فإن هو قتله وحده: ربما ضاعف ناقلوا الخبرِ العددَ، حتى يقول الناس: إن محمدا يقتل أصحابه! مع أنه رجل واحد.

ثم هو ﷺ لم يفرد اللفظة - أيضا -؛ كي لا ينال ابنَ أبيٍّ شرفُ إفراده بالصحبة في لفظه ﷺ.

ثم آذن بالرحيل، فمشى ﷺ بالناس يومهم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وظل يسير حتى آذتهم الشمس، فنزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا .. فعل ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كانوا فيه.

**الأزمة الثانية:** وكانت قاصمةَ الظهر، وهي حادثة الإفك المشؤومة المؤلمة لقلب كل ذي مروءة وشهامة - بَلْه مؤمن موحد! - التي اتُّهمت فيها أشرف النساء وأكرمهن وأحبهن إلى قلب النبي ﷺ، وأحقهن بالفضل والسؤدد: أمنا أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها وعمن ترضى عنها، ولعن من سبها وأخزاه - وما تخللها من أزمات تَفُتُّ في كيان المجتمع المسلم.

وإنما أشاعها المنافق لعنه الله؛ ليوقع النبي ﷺ في الحرج! فإن هو دافع عنها: قالوا: يدافع عن زوجه؛ محاباة لها - وهو الصادق ﷺ ــ! وإن هو سكت أوقع نفسه وأهله والمسلمين في حرج وكرب وضيق.

ثم يأبى الله إلا أن تكون براءتها في آيات تتلى، تقرع آذان البشرية؛ سلوةً للنبي ﷺ، وإعزازًا لأم المؤمنين، وإهانةً للمنافقين، وتذكيرًا للمؤمنين الصادقين الذين سقطوا - غفلة - في تلك الفتة.

**وعقيب تلك الغزوة:** أنزل الله - تعالى - سورة عظيمة لم تسم إلا باسم واحد؛ لأنها لم تتحدث إلا في قضية واحدة .. وكان ﷺ يقرؤها في كثير من الأحيان في الركعة الثانية من صلاة الجمعة. وهي **«سورة المنافقون»**.

أخرج الطبراني في [المعجم الأوسط] بسند حسن عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة، فيحرض بها المؤمنين، ويقرأ في الركعة الثانية بسورة المنافقين، فيقرع بها المنافقين».

وثم نكتة في ذلك: وهي أن سورة الجمعة تحدث الله فيها عن اصطفاء الأميين بالنبي الخاتم ﷺ، وبدد أوهام اليهود؛ بما ارتكبوه، فحسم بذلك أمرهم في المدينة، خاصة وفي بقاع الأرض عامة. فقال - سبحانه - **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ \* وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ \* مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)** . وسورة «المنافقون» فضح الله فيها النفاق وحزبَه، فحسم بذلك أمرهم في المدينة. فكان ﷺ في الركعة الأولى من الجمعة: يحرض المؤمنين على التمسك بما ورثوه من أمانة، تخلى عنها اليهود. وفي الركعة الثانية: يقرع أسماع المنافقين علَّهم يثوبون إلى رشدهم، ويُقْلِعُون عن نفاقهم، ويحذر المؤمنين أيضا من طرائق المنافقين.

**مع أن القرآن المدني** لا تكاد تخلوا سورة من سوره، **من** الحديث عن المنافقين، وطرائقهم في إثارة الفتن، والتحذير منهم.

**ففي بدايات سورة البقرة:** يحذرنا ربنا - سبحانه - منهم، في قوله - تعالى - **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ).**

**وفي سورة آل عمران:** يقول - سبحانه -: **(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ \* الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).**

**وفي سورة النساء:** يحكم أحكم الحاكمين عليهم بأنهم في الدرك الأسفل من النار، وأن لهم عذابا أليما، وأن الله جامعهم مع الكافرين في جهنم جميعا؛ لأنهم يصدون عن الحق صدودا، ويخادعون الله، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلا، ومذبذين بين الإسلام والكفر.

**وفي سورة الأنفال:** يقول - سبحانه -: **(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)**.

**وفي سورة الأحزاب:** يتحدث عن تكذيبهم النبيَّ ﷺ، وتخذيلهم المؤمنين، واتهامهم إياهم، واختلاقهم المعاذيرَ، وخوفهم وجبنهم وبخلهم. في قوله - سبحانه - **(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ...) إلى قوله - تعالى -: **(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا) ...** وهكذا.

**ودونك سورةَ «التوبة»:** فهي السورة المخزية والمنكلة والمشردة إياهم، الفاضحة نيَّاتِهم وأفعالهم، المقشقشة جرب قلوبهم ونفوسهم، المزلزلة كيانَهم، المبعثرة أسرارَهم، المثيرة عوراتهم ومخازيهم وقبائحهم، المنقرة عن فساد قلوبهم، المدمرة مخططاتِهم .. أكثر سور القرآن الكريم حديثا عنهم.

**إلا أن الله -** تعالى - شاء أن تعرف سورة المنافقين بهذا الاسمدونا عن غيرها؛ لأسباب عدة:

**\* أنها أعقبت غزوة** **بني** المصطلق، التي شارك فيها عدد كبير من المنافقين لم يشارك في سواها من الغزوات والسرايا.

**\* أن المنافقين ما اختلقوا** أزمات في المجتمع المسلم في العهد النبوي، كما اختلقوا بعد هذه الغزوة، التي شاركوا فيها؛ للحصول على الغنيمة، وإثارة الفتنة.

**\* أن السورة ما تحدثت** بكاملها في قضية إلا قضيتهم، مع الأمر في آخرها ببعض ما تخلوا عنه، مما ينزع فتيل النفاق من قلب المؤمن.

**والنفاق:** اضطراب في نفسية صاحبه، وخلل في عقله وفكره، وازدواج في شخصيتة، تصورا وسلوكا، يبدأ بأن يكون صاحبُه ذا وجهين! «وشر الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» كما يقول النبي ﷺ. ثم يمتد حتى يكون كالحرباء، يتلون بلون المجتمع الذي يعيش فيه.

وهو أشد ضررا على الإسلام، وخطرا على أهله من العدو الظاهر؛ لذا يقول الله - تعالى -: **(هم العدو فاحذرهم)**، فحصر العداوة للإسلام وأهله فيهم، بطريق تعريف الطرفين؛ لينبهنا على أن عدو الداخل الخائن المتخفّي المزدوج، أشد ضراوة من العدو الظاهر، ذي الوجه الواحد.

**وحين نتأمل السورة**: نجد أن الله - تعالى - أبطل فيها بعضَ افتراءات المنافقين، وفضح سرائرهم:

**فأولها نزل تصديقا لزيد بن أرقم**، لما أخبر النبي ﷺ بقول زعيم المنافقين: «سمن كلبك يأكلك! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» .. وكان ابن سلول قد حلف هو وأصحابه أنه ما قالها، فصدقه النبي ﷺ وكذب زيدًا. فأنزل الله - سبحانه -: **(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ).** فقال النبي ﷺ: **«إن الله قد صدقك يا زيد».**

**وفضح فيها مكنوناتهم**، وما تكلموا به بعيدا عن مسامع النبي ﷺ بقوله: **(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ \* يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ).**

وعدل عن الإضمار في (**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**)، (**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)، فلم يقل(ولكنهم)؛ لتكون الجملة مستقلة الدِّلالة بذاتها، فتسير كالمثل - كما قال الطاهر –

**وقد حدَّدَ ربنا الخبير بعباده، في السورة بعض المعالم الرئيسة لشخصية المنافق:**

**الأول: الكذب الدائم، واتخاذ اليمين جنة.**

قال - تعالى - في السورة**: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).**

ودونك ما فعله عبد الله بن أبيٍّ في هذه الغزوة، حين تفوَّه بالعفن، ثم أقسم أنه ما قال شيئا. وهذا ديدنهم. ويقولون في المثل العامي: **لا يحلف إلا كذاب!**

فحين تتأمل القرآن الكريم تجد أن الحلف في القرآن الكريم في كثير من المواضع، غير منسوب إلا إليهم، ثم إلى الكافرين على قلة.

ومن ذلك: قوله - سبحانه - في سورة النساء: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا \* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا \* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا).**

وقال في سورة التوبة: **(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ).** وقال - سبحانه -: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ \* يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا).** وقال - سبحانه -: **(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ).** وقال - سبحانه -: **(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ).**

ويُجْملُ ربُّ العالمين ما سبق **في سورة المجادلة، فيقول - تعالى -: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ \* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ \* لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ \* اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).**

هان عليهم رب العالمين، فحلفوا به كذبا؛ لينجوا من لوم الناس في الدنيا، فهانوا على ربهم، وأبى إلا أن يفضح سريرتهم.

**الثاني: أقوالهم ومظاهرهم جذابة معجِبة، لكنها خاوية من كل خير.**

فقد كان عبد الله بن أبي وسيما جسيما، صحيحا صبيحا ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته.

لكنهم كالخشب المسندة، لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

يقول الشيخ الغزالي في [خلق المسلم]: «إن الرجل فاسد الذمة، ساقط المروءة، لا قوة له، ولو لبس جلود السباع، ومشى في ركاب الملوك».

قال - تعالى - عنهم: **(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)**. فكلامهم معسول، ومظهرهم مبهر للعقول، لكنه خصم لدود للحق وأهله. **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ).**

قال الطاهر ابن عاشور في [التحرير والتنوير]: «الخشب المسندة: التي سندت إلى حائط أو نحوه، أي أميلت إليه، فهي غليظة طويلة قوية، لكنها غير منتفع بها في سقف، ولا مشدود بها جدار. شُبِّهوا بالخشب المسندة تشبيه التمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى. أفيد بها أن أجسامهم المعجب بها، ومقالهم المُصْغَى إليه: خاليان عن النفع، كخلو الخشب المسندة عن الفائدة، فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لب وشجاعة وعلم ودراية. وإذا اختبرتموهم وجدتموهم على خلاف ذلك فلا تحتفلوا بهم».

لذا يرشد ربنا النبي ﷺ إلى ما يجب أن يفعله تجاه هؤلاء المنافقين بقوله: **(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ).**

**الثالث: يحسبون كل صيحة عليهم.**

يقولون في المثل: (يكاد المريب أن يقول خذوني) من الضيق النفسي، والهم الدائم الذي هو واقع فيه، كلما نادى مناد: سُرق كذا! ضَاع كذا! وقعت مصيبة كذا! ظن نفسه المراد. لوقوعه موقع المتهم، فيعتريه الهلع والخوف، والمذلة الدائمة.

فهم كذلك يحسبون كل صيحة عليهم؛ لأنهم ارتكبوا جل الجرائم اللاإنسانية واللاأخلاقية، قديما وحديثا، وما مُنِيَت الأمة بمصيبة كما منيت بمصائبهم، وما أوتيت إلا من قبلهم!

**الرابع: الاستخفاف بهدايات الشرع.**

وهذا معلم بارز من معالم شخصية المنافق؛ لأن قدسية الشريعة انتزعت من قلبه، فلم يستطع أن يتذوق حلاوة الإيمان؛ فيستخف بالحق وأهله، ولا يعبأ لهما.

قال - تعالى -: **(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ \* اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).**

ولا يغيب عن بالك براعة النظم القرآني في التعبير عن حالهم مع أهل الحق وحالهم مع أهل الباطل. فقد عبر عن الحال الأولى بقوله (**وَإِذَا لَقُوا**)، هكذا لقاءً عابرا، لا اطمئنان فيه .. لقاء من لا يريد اللقاء .. لقاء متعجل يود الإياب إلى أحبته من أهل ملته. أما في الحال الثانية، فقد عبر عنه بقوله: (**وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ**). والفعل (خلا) لا يتعدى بحرف الجر (إلى)، لكن ضُمِّن هذا الفعل فعلا آخر، يتعدى بالحرف (إلى)، لا يكتمل المعنى المراد إلا به. وهو (وإذا خلوا مطمئنين إلى شياطينهم). ثم إن الخُلُوَّ مَظنَّةُ البوح بمكنونات القلب، وبما يجيش في الصدر.

وقال - تعالى - عنهم: **(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ \* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ \* لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ).** وقال - تعالى -: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا).**

**ومن صور هذا الاستخفاف والاستهزاء:** ما ذكره الله - تعالى - في سورة «المنافقون» **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ \* سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).** مع أن الإنسان المؤمن يتمنى أن يستغفر له رجل صالح، أو أن تناله بركة دعائه. لكن المنافق على عكس ذلك، فهو يستهزئ بالصالحين، وبأحوالهم مع الله ومع الناس! (**وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ**) عن الحق، ليس لجهلهم به، أو أنهم أكرهوا على ذلك، أو لعدم مبالاة منهم! بل: استكبارا في الأرض ومكر السيء، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

**الخامس: تأجيج الصراعات داخل المجتمع المسلم.**

إن طبيعة المنافقين الازدواجية، وانحراف تصورهم وسلوكهم، لا تخول لهم العيش إلا في مجتمع مضطرب، يسوده جو الفتن والقلاقل! فالاطمئنان ينغص عليهم حياتهم، ويعطل مصالحهم التي لا تسير إلا مع الفتن جنبا إلى جنب؛ لذلك تجدهم يتحينون الفرص؛ لاختلاق الأزمات، ويتخذون في ذلك كل سبب .. تافهة وغيره، وقد يكون بغير سبب! كما حدث في غزوة بني المصطلق، لما أججوا الصراع بين المسلمين. وما الذي تظن أن يُحْدثَهُ تضاربُ غلامين، أحدهما مهاجري، والآخر حليف للأنصار؟! حتى هدأهم النبي ﷺ، ونَيَّمَ الفتنة، وهم مصرون على إذكاء نارها.

وهكذا في كل عصر ومصر، يؤججون الفتن، وينشئون الصراعات؛ ليصدوا عن الحق وأهله.

**السادس: التذبذب القائم على اللامبدئية.**

فهم يتلمسون مصالحهم المادية، ويسيرون خلف تحقيقها، فإن كان تحقيقها تحت راية اليهود: اتبعوهم، أو تحت راية النصارى: اتبعوهم، أو تحت راية اللادينيين: اتبعوهم، أو تحت راية أهل الحق اتبعوهم، خداعا لهم **(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا \* مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا).**

قال - تعالى -: **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)؛** لأنهم قد انطمست بصائرهم؛ إذ الصادق لا يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان. لكن: **(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا).**

**(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)**: دعاء عليهم، أو إخبار عما ابتُلوا به من زيادة مرض قلوبهم، فيتذبذبون بين الحق والباطل، بحثا عن المصلحة. ومن كان هذا حاله = متلاعبا بأحكام الله ورسوله: شطَّت عنه الهداية، وابتعدت عنه المغفرة. **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا \* بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا).**

**السابع: التضييق على أهل الحق؛ للتنفير منهم.**

فهم يحاصرون الأمة حصارا نفسيا ومعنويا بالافتراءات المغرضة، والشائعات الكاذبة. وماديا بالتضييق عليهم، كما في قوله: **(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا).** وهو نفس أسلوب المشركين القذر، في الحرب على أهل الإسلام. ولا ننسى حصار قريش الاقتصادي للنبي ﷺ وأصحابه وبني هاشم، في شعب أبي طالب.

**تلك بعض معالم شخصية المنافق**، التي حدثتنا عنها سورة «المنافقون». فليعرض كل مسلم نفسه عليها .. فإن وجد براءة منها حمد الله على العافية، وسأله السلامة، وإن لمس أحدنا في نفسه بعضا من معالم تلك الشخصية الوضيعة، فليسارع بالتوبة، فإن الله يغفر الذنوب جميعا. **(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).**

**ثم خُتمت السورة** بما فيه تحصين للمؤمن، ووقاية له عن الوقوع في النفاق. وهو: ذكر الله - تعالى -، والإنفاق في سبيله.

فقال: **(لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)،** منبها على أن العلة الموجبة للنفاق: هو طمس البصيرة. وأن العلة في طمس البصيرة: الإقبال بالقلب على الدنيا، والغفلة عن ذكر الله - تعالى -.

وتلحظ هذا المعنى حين تقرأ الآيات التي تتحدث عن المنافقين، تجد أن الله - تعالى - يذكر بعدها، في بعض المواضع، أن المنافق طُمست بصيرته بغفلته عن ذكر الله - عز وجل -.

قال - تعالى -: **(إِنَّ المُنَافِقِيِنَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا).** وقال - تعالى - بعدما ذكر طرفا من أحوالهم: **(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).**

قال ابن القيم في [الوابل الصيب]: « في ذلك تحذير من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله - عز وجل - فوقعوا في النفاق. وسئل بعض الصحابة - رضي الله عنهم - عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا. المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً. فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله - عز وجل - وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله - عز وجل - أكرم من أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله - عز وجل -».

**ثم كان الأمر الثاني بالنفقة.** قال - سبحانه -: **(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ).** مقابلة لقول المنافقين**: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا)**. وللصدقة تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء، وفي تطهير القلب من أمراضه التي أعظمها: النفاق والرياء.

ثم ختم السورة بفاصلة تناسب المقام. وهي قوله**: (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).** أي خبير بمكنوناتكم، وبما تعملونه سرًا وجهرًا، مهما أخفيتم عن أعين الناس، فقد كشف كذب المنافقين وألاعيبهم. **ألا يعلم من خلق؟! وهو اللطيف الخبير.** سبحانه جل في علاه.

**نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجنبنا النفاق وحزبه، وأن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن.**

**والحمد لله رب العالمين.**

**د. إسلام بن نصر الأزهري**